

## الاحتفالات في المدينة والنظام (الاجتماعي - الاقتصادي) في عصر العولمة

# حالة «كارنفال» لندن السنوي



د. وليد احمد السيد \*

■ تشكل ظاهرة "الاحتفالات" في المدينة عبر التاريخ حدثا اجتماعيا يتساقق والانماط والمنظومات والعادات والتقاليد الاجتماعية السائدة في المجتمعات البشرية، والتي كرسها العمارة والتخطيط العمراني كفن انساني ذي ابعاد اجتماعية واقتصادية، وسياسية. فالمدينة الانسانية كمنتج عمراي وتخطيطي كانت دوما الحاضنة الثقافية والحضارية للتعبير عن منتجات المجتمعات من عادات وتقاليد وتراثات وانماط سلوكية من ناحية، وللتعبير عن متطلباتها والتفاعل ضمنها ونتاج الفنون والفولكلور والتراث المجتمعي للشعوب كل على شكلته. وبالرغم من التباينات الثقافية بين الامم والشعوب الا ان الحاجة للفضاءات الحضرية في المدينة لممارسة العادات والطقوس والاحتفالات الموسمية كانت وتظل قائمة بصرف النظر عن المكان والزمان او اية خصوصية اخرى. فالقاسم المشترك كان دوما هو التفاعل المجتمعي الموسمي، والاختلاف هو المكان وطرائق التعبير. وتعود فكرة الاحتفالات المدنية بأوروبا الى عصور وثنية قديمة جدا حيث كان يتم ارتداء الأقنعة على الوجوه في الاحتفالات السنوية في اسبانيا والمانيا. وغالبا ما شهدت المدن الكاثوليكية الأوروبية في برد الشتاء وجوها الغائم لتزين مدينتها بزينة الاحتفالات وبهاء الازياء التي يتم ارتداؤها. ومن اشهر الاحتفالات والمهرجانات السنوية في بريطانيا هو مهرجان (Notting Hill Carnival) الذي يقام كل صيف في المنطقة من لندن والتي يحمل المهرجان اسمها حيث يشارك أكثر من مليون شخص في شوارع منطقة (Hill Notting) للتعبير عن فرح الزواج وارتداء الملابس الزاهية■



■ الساحة الهاشمية بمدينة عمان

**تعود فكرة الاحتفالات المدنية بأوروبا إلى عصور وثنية قديمة جدا حيث كان يتم ارتداء الأقنعة على الوجوه في الاحتفالات السنوية في اسبانيا والمانيا**

**تكاد المجتمعات العربية تخلو من هذه "الاحتفالات" المجتمعية على مستوى المدينة والتي تعبر عن ماضي وحاضر الأمة**



■ من "كارنفال" لندن السنوي

يقومون به في وسط الشارع مما أدى لدنس اثنين منهم من قبل سيارة مسرعة لأن سائقها بالفراق، عدا عن مجموعة حوادث سير مشابهة أخذت تتزايد. هذه الحوادث دعت أهل الحي لاتخاذ قرار بالاستيلاء على أرض فارغة مجاورة كانت تعود لأحد اصحاب التطوير العقاري وتحويلها الى متنزّه للحي يلعب فيه الاطفال بالكرة، وتشكلت جمعية للحي قامت بتطوير بعض العقارات القديمة وتحويلها الى مقهى للحي وحضانة ومراكز تدريب، مما اعلن عن روح جديدة للحي تضامن فيها السكان لما فيه مصلحتهم. هذه التطورات التي كانت تتم بملازمة لصيقة وقرارة لاحتياجات، بل "واملاء" من المجتمع والواقع المحلي، كان

يصادحها رقابة لصيقة وعين متبصرة ومفتوحة لما يجري من قبل صانع القرار وعلى اعلى المستويات. فنجد ان الامير تشارلز، والمعروف باهتماماته الشخصية بالعمارة والتصميم الحضري، يصرح في كتابه (A vision for Britain) عام ١٩٨٩ بقوله: "حان الوقت لعدة تجارب فيما يتعلق بالطريقة التي نخطط فيها ونبني ونملك مجتمعاتنا الحضرية. فعلى سبيل المثال تبرز الحاجة لمبادرات جديدة لمحاولة ايجاد حلول تضمن ان محيطنا الحضري والمحلي ليس مفرطاً فيه على حساب السيارة". وهو ما يعكس رؤية ثاقبة لصانع القرار المحلي وانعكاسا واستجابة لمتطلبات الواقع واحتياجات المجتمع المحلي والقاعدة الشعبية، فضلا عن ادراك

تطورات الوقت والمرحلة. وهي رؤية استراتيجية تتعلق بحيز السيارة كمدخل تكنولوجي في بلد صناعي واحترام حيز المشاة وبخاصة في مناطق الوسط التاريخي. ومن هنا فقد كانت إعادة قراءة ميدان شهير بوسط لندن هو "ترافالغار سكوير" وتحويل قسم كبير منه الى مناطق مشاة - والذي ساهم كاتب هذه السطور في دراسة ميدانية جزئية به في العام ٢٠٠٣ مع مكتب استشاري بريطاني متخصص، هي من ابداعات مراجعة العلاقات المختلفة بين مستخدمي المكان الحضري تبعا لمتطلبات المرحلة وبما يخدم الاستعمال الأمثل للمكان.

ما يلاحظ في العالم العربي عموما، وهي من واقع قراءات متعددة للكاتب لاكثر من عاصمة عربية، هي انعزالية صنع القرار السياسي عن واقع المجتمع المحلي، والانكى هو اهمال نوعية الشرائح الاجتماعية المستفيدة من المشروع الحضري وموقعها على المقياس الاقتصادي. فوسط المدن العربية التاريخي حين يتم اهماله كذاكرة اجتماعية لايجال وشرائح واسعة مجتمعية مختلفة الاعراق، باحلال مشروعات تتميز بالحدائق من جهة وبرامج لا تسمع بطبيعتها الا بارتدادها من قبل النخبة لا من العامة، تعني ان هذه المشروعات "تهمش" الاغلبية في احسن الاحوال، او تضع فوارق طبقية اجتماعية مستندة لمرجعيات وارهصاص اقتصادية في وجوه شريحة واسعة كان يمكن ان تثرى التجربة المكانية لو احسن المخطط والحضري تحديد البرامج المطروحة لاستعمالات المكان.

فمن اولويات وابداعات التصميم الحضري للوسط التاريخي لاية مدينة - وهو ما اظهرته العديد من التجارب الناجحة العالمية - في تحديد مجال حركة السيارة وفصلها تماما عن المشاة ليتسنى للبشر استخدام المكان واثراء التجربة الاجتماعية فيه. وفي الوقت الذي تطرح فيه مشاريع تطوير حضرية بمدن لها ذاكرة وبعد تاريخي، يتم اهمال معالجة حركة السيارات، وتترك منطقة الدراسة "كجزيرة" عائمة محاطة بشوارع تجوبها سيارات بسرعة عالية، مما يوحى مسبقا بمدى الفشل الذي سيعانيه اي مشروع يطرح في وسط هذه الجزيرة الحضرية. يضاف لذلك ان اي مشروع لا يمكن لايسط مواطن ان يتجول فيه بحرية ودون "سوار" او اجراءات أمنية عالية نظرا لطبيعة برنامجه وتصميمه فذلك يعني "فشلا مسبقا" ولاحقا ايضا. ولذلك فمن ايسط الطول تحديد "تغول" السيارة داخل الوسط باقصاء مجتمعات النقليات لاطرافها البعيدة عن وسط المشروع الحضري والتاريخي، مع توفير وسائل نقل خفيفة كعربات "الكارو" شرقا لاسيوية التي يجرها الاميون - والتي انتشرت مؤخرا بوسط لندن وتشكل وسائل نقل "متعة" ومتميزة سياحيا ومحليا، او توفير ترام او قطار خفيف ذي سرعة محدودة جدا.

ثلاثة عوامل اساسية تسهم في انجاح او افساح اي مشروع تطوير حضري هي: ذاكرة المكان او اليبعد التاريخي له، واليبعد الاجتماعي وادراك نوعية وطبيعة واحتياجات الشرائح الاجتماعية التي ستستخدمه وتثري خصائص المكان فيه، والثالث هو علاقة الموقع الحضري بالمحيط وتكاملية الاطراف مع الموقع. فذاكرة المكان تفرض وتلمي نمطية معينة لاية التصميم كاداءة وكحتوى، والناس تحدد ويشكل حضري وتدرجي كيفية الاية وماهية النشاطات المقترحة. اما العنصر الثالث وهو الایهم فهو دراسة واعية لمحيط الموقع واطرافه وما يحاذيه من حجر وشجر وبشر، مما له ابعاد الاثر في تحديد الوصول للموقع، كما تفرض العلاقة الجديدة بين الموقع الحضري وما يلاصقه وتلمي طبيعة المقترح والبرنامج الوظيفي، وما لا نهاية له من ابعاد عميقة تثرى كل تفاصيلها، وما يمكن اقتراحه من اعمال ترميم وصيانة وتطوير واحلال ولاء للحيين الفراغي الحضري، تثرى جميعا وسطا حضريا لمدينة ثرية اصلا بعمق تاريخها. اما ان يتم تجاوز ذلك كله فهذا امحال وسوء تخطيط. وتبقى مجموعة من الاسئلة المهمة مطروحة برسم الاجابة على صانع القرار والمجتمعات المحلية سواء بسواء وهي: كيف يمكن اقتراح ساحات "احتفالية" بوسط مدينة ما في اية عاصمة عربية، ومعظم الانظمة المعمول بها تمنع تجمع ثلاثة اشخاص في مكان عام دون اذن مسبق من البلدية؟ اليس حريا معالجة النظم السياسية واطلاق حريات التعبير المجتمعي عن الافراح والاتراح قبل انشاء ساحات عامة ستتطلبي بلهيب الشمس صيفا وبالبرد القارس شتاء اذ ستبقى حاوية من اي مظهر من مظاهر التعبير المجتمعي؟ ومن ناحية اخرى هل ثقافة "الاحتفالات" موجودة اصلا في المجتمعات العربية بعامة، ام انها ترف وفجور ومجون لا مسوغ له كما تراه شرائح واسعة من المجتمعات التقليدية المحافظة التي تحفل بها عوضنا العربية؟ وما هي "الاحتفالات" التي يمكن ان تقام وما لا يمكن ان تقام؟ الاجابات عن هذه الاسئلة وغيرها هي من ابداعات التصميم الحضري في العالم العربي قبل اقتراح اية خطط ومشاريع "احتفالية" تستنزف الموارد العامة وتضيف للتخطيط التخطيطي الذي تعاني منه الكثير من مدن العالم العربي وبامتياز!■

معماري واكاديمي - مدير مجموعة لونا ريد بلندن  
saidw03@yahoo.co.uk